تحليل
الخطاب التفسيري
عند المحدثين

منطلقاته واتجاهاته

تحليل الخطاب التفسيري عند المحدثين

منطلقاته واتجاهاته

د. حميد قاسم هجر المفضل

منشورات ضفاف
DIFAFPUBLISHING

دار أوما
DAR OMA

دار الأمان
الرباط

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

طبع في لبنان

الطبعة الأولى: 1436 هـ - 2015 م

ردمك 978-614-02-1105-6

جميع الحقوق محفوظة

دار أوما
DAR OMA
omapublishing@hotmail.com
omapub.ishing@gmail.com
هاتف: 009647804500656
العراق- بغداد شارع المتنبي، الناصرية - شارع الحبوبي

دار الأمان
الرباط
4، زنقة المامونية - الرباط - مقابل وزارة العدل
هاتف: 537723276 212+ - فاكس: 537200055 212+
البريد الإلكتروني: darelamane@menara.ma

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef
149 شارع حسيبة بن بوعلي
الجزائر العاصمة - الجزائر
هاتف/فاكس: 21676179 213+
e-mail: editions.elikhtilef@gmail.com

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING
هاتف بيروت: 9613223227+
editions.difaf@gmail.com

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأيّة وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أيّة وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾

صدق الله العظيم

النمل: 19

الإهداء

إلى والديَّ عرفاناً بالجميل...

إلى زوجتي التي كانت بحق نعم الشريك...

الى أولادي محمد، علي، إسلام، كرار، إبنتي رحمة...

الأمل الذي أرجو نواله...

المحتويات

المقدمة **13**

التمهيد **19**

ملامح نقدية من قراءة الأقدمين للنص القرآني 21

الفصل الاول: الاتجاه الفني **29**

سيد قطب (1906–1966) الاتجاه الفني 31

الوحدة النسقية في القرآن 35

تناسق الصورة في القرآن الكريم 42

التعبير بالصورة والمشهد 45

التخييل الحسي والتجسيم 47

التعامل مع الألفاظ والإيقاع 55

القصة القرآنية عند سيد قطب 60

الفصل الثاني: الاتجاه البلاغي **69**

الاتجاه البلاغي 71

1– الدكتورة عائشة عبد الرحمن (1912–1998) 73

2– الدكتور فاضل صالح السامرائي (1933–0000) 90

الفصل الثالث: الاتجاه الموضوعي البنيوي **105**

الاتجاه الموضوعي البنيوي 107

أ– الكلية (الشمولية) 110

ب – التحويلات (Trans formation) 110

ج – التنظيم الذاتي (Auto - reglage) 111

المستوى الصوتي 132

المستوى القصصي 137

المستوى الموضوعي 142

الفصل الرابع: الاتجاه التكاملي..... 151
الاتجاه التكاملي..... 153
المنحى اللغوي..... 156
المنحى النحوي..... 159
المنحى الأدبي..... 166
المنحى البلاغي..... 169
المنحى الدلالي..... 182
المنحى الفني..... 192

الفصل الخامس: الاتجاه الاجتماعي..... 199
الاتجاه الاجتماعي..... 201
1- الشيخ محمد رشيد رضا (1865-1935)م..... 205
2- السيد محمد حسين فضل الله (1935-2010)م..... 214

الفصل السادس: اتجاهات اخرى..... 227
1- الاتجاه الألسني - الدكتور محمد اركون (1928-2010)م..... 229
2- الاتجاه التأويلي - د. محمد شحرور (1931-0000)م..... 247

الخاتمة..... 267
المصادر..... 273

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وبه نستعين وأفضل الصلاة وأتم التسليم على رسوله الأمين المبعوث رحمةً للعالمين محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين المعصومين الميامين وعلى صحبه الأبرار المنتجبين وعلى جميع الأنبياء والمرسلين. ومن سار بهديه إلى يوم الدين وبعد....

فمن منن الله تعالى على هذه الأمة هو ان جعل من كتابها المنزل على نبيها المرسل محل اهتمام وعناية لم يحظ أي كتاب سماوي أو ارضي بما حظي به القرآن الكريم سواء من المؤالف أو المخالف أو من المؤمنين به أو المتشككين مما جعل الدراسات القرآنية وما يدور حول القرآن من أبحاث تحتل حيزاً كبيراً في مكتبات العالم.

وبفضل الله تعالى ومنه قد وقع اختياري على عنوان هذا البحث من بين عدة بحوث تكرم عليّ بها أستاذي القدير الأستاذ الدكتور حسين عبود الهلالي وسبب الاختيار هو أولاً وقبل كل شيء كان هدفي ومقصدي من كل دراستي هو ان أخوض في غمار البحث القرآني وان أوفق من عنده تعالى ذكره لأخدم القرآن ولغته، ثم بعد ذلك ان هذا البحث يتسم بالجدة على الرغم من اتساعه وتشعبه، وان عنوان البحث ينم عن العلاقة القائمة بين القرآن الكريم والنقد الأدبي وهي علاقة قديمة قامت منذ بدايات نزول القرآن الكريم وتأصلت هذه العلاقة عندما أصبح القرآن فاعلاً أساسيا في نشأة النقد العربي وتطوره، فالقرآن هو معجزة الرسول الأكرم العربي محمد (ص) في كل زمان ومكان وهو كتاب العربية الأول، ثم ان النقد والتفسير تجمعهما أرضية مشتركة ينطلقان منها وهي اللغة، وميدان عملهما هو النص، أضف إلى ذلك ان عمليتي النقد والتفسير توجبان لمن يتعاطاهما بعض الضوابط والشروط المتشابهة في ما بينهما، ويعتمدان على آلية ممنهجة تحدد المقاصد والغايات المتوخاة من هذه العملية سواء كانت نقدية أو تفسيرية، إذ ان كل منظومة لها منطلقاتها ومقاصدها وغاياتها التي تؤطر ممارسة عملية النقد والتفسير من داخلها وتصبغها بصبغتها.

وإذا كان قد اهتم بدراسة اثر القرآن في تصور النقد العربي عدد من الباحثين فالدراسة هنا جاءت بمحاولة لرفد رحلة البحث في هذا المجال ولكن باتجاه آخر يبين اثر المناهج النقدية الأدبية في تفسير القرآن الكريم، حيث ان للظروف الثقافية المعاصرة وتعاظم الجهود النقدية المتأثرة بالثقافة الغربية بد تأثيرها الواضح في كثير من المجالات ولاسيما تفسير القرآن الكريم.

وآثر البحث على ان تكون دراسته للاتجاهات النقدية وليس للمناهج النقدية لأنه في حقيقة الأمر لا يوجد هناك تفسير قرآني قد اعتمد المنهج النقدي كلياً بحذافيره، لان المنهج بمفهومه العام هو الطريق المؤدي إلى الكشف عن الحقيقة في العلوم بواسطة طائفة من القواعد العامة التي تُهيمن على سير العقل وتحدد عملياته حتى يصل إلى نتيجة معلومة[1] أو كما يقال هو الوعاء الذي يحتوي أفكار الاتجاه بأجمعها[2]. وهذا ما لم يتحقق في التفاسير القرآنية، ومن هنا يُعدّ الاتجاه اخف وطئة من المنهج، إذ انه مجموع الآراء والأفكار والنظرات والمباحث في عمل فكري ما تكون الاتجاه وتكون عادة غالبة على ما سواه بحكمه إطار نظري أو فكرة كلية تعكس بصدقه مصدر الثقافة التي تأثر بها صاحب الاتجاه ولونت اتجاهه بلونها[3].

وقد ارتأى البحث ان يختار بعض التفاسير القرآنية التي تبرز الاتجاه الذي يعمل على وفق رؤيته في وقتنا المعاصر دون النظر في التفاسير ذات التوجهات المغالية أو المتطرفة أو غير ذلك، وكذلك دون التفاسير التي لم تتضح فيها رؤية دالة على توجه نقدي معين. أو من التفاسير التي اخذ عنها نموذجا كان أكثر دقة ووضوحاً في مجال اتجاهه. ثم ان الدراسة لم تأخذ على عاتقها المفسرين ممن ألف تفسيراً كاملاً للقرآن فقط، أو ممن أُطلق عليه مفسراً، بل أخذت حتى الأشخاص الذين قاموا بتفسير جزئي لبعض السور أو الآيات أو ممن تعاطى مع النص القرآني على وفق رؤية نقدية واضحة. وبعد ان تحدد مسار البحث وجمعت مادته الأولية على هذا الأساس، استوى في صورته النهائية في ستة فصول ومتمماتها من مقدمه وتمهيد وخاتمة.

---

(1) أصول البحث العلمي ومناهجه: د. احمد بدر، وكالة المطبوعات، ط3، الكويت، 1977، ص 26

(2) ينظر: المصدر نفسه: 68

(3) اتجاهات التجديد ومناهجها في تفسير القرآن الكريم: د. إبراهيم شريف: 199

جاء التمهيد تحت عنوان (ملامح نقدية من قراءة الأقدمين للنص القرآني) تناول فيها بوجازة دون الخوض في التفاصيل بعض الملامح النقدية لدى دارسي النص المقدس، وجاء الطرح فيه كإشارات دالة على توجه نقدي عند هؤلاء الدارسين دون التعمق في البحث وذلك لوفرة الدراسة فيه.

جاء الفصل الأول تحت عنوان الاتجاه الفني واتخذ من دراسات سيد قطب ميداناً لعمله من خلال تعامله مع النص القرآني في كتابيه في ظلال القرآن والتصوير الفني في القرآن، إذ سلط البحث الأضواء على المعالجات الفنية التي تعامل معها المفسر من وحدة نسقية، وتناسق الصورة في القرآن، وكيفية التعبير القرآني ورؤية المؤلف في التخيل والتحسيم وأقسامهما ثم ما تطرق له في التعامل مع الألفاظ والإيقاع وذكر بعد ذلك القصص القرآني. وكيف تعامل معها المفسر على وفق الرؤية الفنية.

وانتظم الفصل الثاني بعنوان الاتجاه البلاغي واخذ البحث فيه شخصين مؤثرين وكانا ابرز من تعامل مع النص القرآني على وفق هذه الرؤية وهما الدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) الدكتور فاضل السامرائي حيث ذُكر في هذا الفصل مختلف المفردات والعنوين البلاغية التي تعامل معها هذان الشخصان مع النص القرآني على وفق الرؤية البلاغية فقد تم ذكر الإيجاز والتكرار والقسم والتقديم والتأخير وبعض الأساليب البيانية التي أسهمت في رسم الصورة القرآنية من استعارة وكناية وتشبيه وغير ذلك.

وقد جاء الفصل الثالث بعنوان الاتجاه الموضوعي البنيوي وهو من الاتجاهات النقدية الحديثة وتناول بحث المفسر الدكتور محمود البستاني وتفسيره البنائي للقرآن الكريم حيث تطرق البحث إلى أهم الرؤى الموضوعية البنائية التي اعتمدها وبنى عليها المفسر تفسيره وكيف انه موضع السور وبحث في الموضوع وحاول اكتشاف الروابط والعلائق ما بين الموضوع الرئيسي لكل سورة والمواضيع المتموضعة معها وكذلك بحثه عن البنية التي تتشابك فيها هذه الموضوعات.

ثم تبعه الفصل الرابع وجاء تحت عنوان الاتجاه التكاملي إذ درس فيه تفسير التحرير والتنوير للشيخ الطاهر بن عاشور مسلطاً الضوء على جميع المناحي والاتجاهات التي تناولها المفسر في تفسيره من الجانب اللغوي والصرفي والنحوي

وكذلك البلاغي والأدبي فضلاً عن الاتجاه الدلالي مشيراً إلى بعض الجوانب الأخرى كالفني والتاريخي. وعُنونَ الفصل الخامس بالاتجاه الاجتماعي وتم فيه دراسة علمين من أعلام التفسير القرآني ممن سلكا في تفسيريهما مسلكاً بدت فيه الرؤية الاجتماعية واضحة في قراءتهما للنص القرآني وهما الشيخ محمد رشيد رضا والسيد محمد حسين فضل الله.

واختتم هذا البحث بفصل سادس جاء بعنوان اتجاهات أخرى تناول فيه البحث اتجاهين من الاتجاهات النقدية الحديثة في ضوءهما تم قراءة النص القرآني وهما الاتجاه الألسني المتمثل بقراءة محمد أركون والاتجاه الآخر الاتجاه التأويلي الذي تبناه محمد شحرور.

وبهذا نكون قد وصلنا إلى خاتمة البحث، ولا ندعي بما ليس فينا إلا اننا نقول قد أجهدنا النفس والفكر وكل ما نستطيع عمله من اجل ان يظهر البحث بالحلة التي نريد وبالدراسة النافعة الجديدة ونكون قد فتحنا طريقاً لمن يريد ان يكمل هذا المشروع.

نسأله تعالى ان يغفر لنا ويعفو عنا ويسدد خطانا ويأخذ بأيدينا لما فيه الخير والصلاح انه نعم المولى ونعم النصير وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين ((**رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا**)) انك أنت ارحم الراحمين.

التمهيد

ملامح نقدية من قراءة الأقدمين للنص القرآني

فتح القرآن الكريم آفاقاً واسعة في مجال النقد الأدبي والدراسات الأدبية على وجه العموم وكان مدار الحوار والجدل ينصب كله تقريبا في درس الإعجاز البلاغي للقرآن فكان لدارسي الإعجاز أثر في تطور النقد وقضايا البيان، إذ تعرض العلماء للبحث في متصرفات الخطاب وترتيب وجوه الكلام وما تختلف فيه طرق البلاغة وتناولوا أسلوب القرآن وجوانبه البيانية وحاولوا إثبات إعجازه البياني بمقارنته بالشعر العربي، ثم انتقلت بعد ذلك مقاييس لنقد بالدراسات القرآنية واستخدام علماء الإعجاز مصطلحات البديع وأبوابه في الكشف عن بديع الأسلوب القرآني، ويفسر لنا هذا اتصال البلاغة في نشأتها بالدرس القرآني لبيان إعجاز القرآن الكريم[1].

فهذا أولاً أبو عبيدة قد ابتدأ هذا الطريق أو المسلك في تعاطيه مع القرآن في كتابه مجاز القرآن وان كانت الصبغة البادية عليه هي الصبغة اللغوية البحتة إلا انه يعتبر ((مرحلة أولية من مراحل تطور النقد والدراسات البيانية لأسلوب القرآن))[2]. فقد تميز منهجه في كتابه بسعة الثقافة والحرية في فهم النصوص فاعتمد حسه اللغوي في استقرائه مناحي المجاز، دون الخضوع لقيود وضوابط مدرستي الكوفة والبصرة لفهم النصوص العربية[3].

كذلك هيمن على الكتاب البحث في أساليب القرآن مع التمثيل عليها بما يشبهها من إشعار العرب وأساليبهم، وجرَّهُ هذا الاختيار التحدث عن فنون القول وأنماطه فكان نواة أولى للبحوث البيانية ولبنة هامة لمن يتولى عرض قضية إعجاز

---

(1) ينظر: اتجاهات النقد الأدبي، د. منصور عبد الرحمن: 100، وينظر: اثر القرآن في تطور النقد العربي، د. محمد زغلول سلام: 22

(2) اثر القرآن في تطور النقد العربي: 41

(3) مجاز القرآن (مقدمة المحقق د. محمد فؤاد سزكين): 19/1

القرآن، أضف إلى ذلك ان أبا عبيدة كان يتمتع بحس فني تعكسه وقفاته الجمالية مع اللغة والشعر فيما خلفه من تراث[1].

ويمكن القول ان مجاز القرآن كان منطلقاً لمدرسة في التفسير أدواتها الأولية الفقه بالعربية وأساليبها واعتبار النحو صلب المنهج التحليلي في تفسير النصوص والكشف عن طاقات اللغة، وحسبه في ذلك تأثر اللغويين والمفسرين والنحاة من بعده بآرائه وكتابه، فقد اعتمدهُ ابن قتيبة (ت276هـ) في كتابيه: مشكل تأويل القرآن، وغريب القرآن، والطبري (ت 310هـ) في تفسيره، وافاد منه أبو عبدالله اليزيدي (ت 311هـ) في كتابه غريب القرآن، والزجاج (ت310هـ) وتلميذه الزجاجي(338) وغيرهم[2].

أما كتاب (معاني القران) للفراء فقد كان هو الآخر من ساهم في وضع اللبنة الثانية في هذا المجال فقد تناول التقديم والتأخير والإيجاز والإطناب وكذلك المعاني التي تخرج إليها بعض الأدوات كأدوات الاستفهام كما يشير إلى بعض الصور البيانية مثل التشبيه والكناية والاستعارة[3]، وتوالت بعد ذلك الكتابات في هذا المجال وبالخصوص في بيان إعجاز القرآن ومن أهم ما كتب في الإعجاز القرآني هو أبو سليمان حمد بن محمد الخطابي في رسالته المسماة (بيان إعجاز القرآن) وفيها حمل تصوراً مهّد فيه لنظريته في النظم فقسم الكلام على ثلاثة أقسام:

1- لفظ حامل

2- معنى به قائم

3- ورباط لهما ناظم

وإذا كانت هذه الأقسام متفرقة في أنواع الكلام، ولا ترد مجموعة في نوع واحد منه، فانها إذا تأملت القرآن ((وجدتها منه في غاية الشرف والفضيلة، حتى لا ترى شيئاً من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه، ولا ترى نظما أحسن تأليفا واشد تلاؤماً وتشاكلاً من نظمه، وأما المعاني فلا خفاء على ذي عقل، انها هي التي تشهد لها العقول بالتقدم في أبوابها، والترقي إلى أعلى درجات الفضل من نعوتها وصفاتها.

(1) مجاز القرآن: 15/1

(2) ينظر: المصدر نفسه: 17/1

(3) ينظر: اثر القرآن في تطور النقد العربي: 55 وما بعدها

وقد توجد هذه الفضائل الثلاث على التفرق في أنواع الكلام، فإما ان توجد مجموعة في نوع واحد منه، فلم توجد إلا في كلام العلامة القدير، الذي أحاط بكل شيء علما، وأحصى كل شيء عددا. فتفهم الآن ان القرآن إنما صار معجزا لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التآليف مضمنا اصح المعاني))[1].

وقد لاحظ عبد السلام المسدي ان الخطابي قد نفذ من خلال موازنة اللفظ والمعنى إلى صميم الرؤية اللغوية الخاصة، فقد انطلق من فحص دلالي ميز بموجبه بنية الدال، فسماه ظرفاً حاملا على بنية المدلول فسماه مظروفا قائما، ثم تخلص إلى قدرة اللغة على الاستيعاب والانتشار بحيث تتعذر على الإنسان الإحاطة العلية بجميع دوال اللغة فضلا عن المجالات لدلالية، مما يسمح الاستعمال بتكاثر إلى الحد الذي لا يتناهى، والعلة في ذلك عجز البشر على الإحاطة بجميع أسماء الله[2].

وبهذ فان الخطابي بتصوره للنظم حاول تغيير دراسة البلاغة حين تقف عند حدود الشكليات. فقد رأى في عملية النظم ذلك التفاعل الطبيعي والربط الجدلي بين اللفظ والمعنى لنقل التجربة الفنية عموماً وهو بذلك قد نبه إلى شيء جديد في الأسلوب غير اللفظ والمعنى، ذلك هو النظم ليصرف علماء البلاغة عن تلك البحوث إلى بحث أصيل ينبغي مراعاته[3]. ثم انه بعرضه للاعتراضات التي وجهت للنظم القرآني ودحضها ونقضها قد كشف عن قدرة فائقة للرجل على تأويل الآيات وتوجيهها وفهم أنماط تعبيرها، كذلك ومن خلال عرضه نظريته في النظم وتطبيقاته على القرآن والموروث الشعري برزت بعض القضايا النقدية المستندة إلى طاقته وقدرته الأدبية وذوقه الفني، وممن ملك هذه الرؤية النقدية وأبدع فيها من خلال تعامله مع القرآن الباقلاني وذلك في كتابه (إعجاز القرآن) فهو يرجع إعجاز القرآن إلى

(1) رسالة بيان إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز) ت: محمد خلف الله احمد ود. محمد زغلول سلام، ط4، القاهرة، ص 21

(2) الخطابي في الميزان: د. عبد السلام المسدي، مجلة الحياة الثقافية، السنة الرابعة، العدد السادس، تونس، 1979، ص 8

(3) ينظر: اثر القرآن في تطور النقد العربي: 259 - 260

الانسجام التام في التأليف بين أجزاء العبارة باعتبارها كلاً وإلى حسن التنسيق بين هذه الأجزاء في إطار الصورة الكلية للنص القرآني وهو ما يسمى بالنظم، ومعنى ذلك ان الباقلاني لا يرى في الصور الجزئية في حد ذاتها مسوغا للإعجاز وإلا كان من كلام العرب ما هو معجز ولكن الإعجاز يرجع عند النظر إلى الصورة الكلية[1].

وهذه الرؤية التي تبناها تعتبر سابقة له ومتفرد بها في زمنه ويورد الشاهد على صدقه ما ذهب إليه فيذكر سورة النمل ويتعرض للاستدعاء القائم بين الآية والتي تليها والترابط بين الجملة والجملة حتى يخلص في النهاية إلى ان السورة تبدو وكأنها سورة كلية ونسج محكم قد انسجمت فيها الألوان وصارت بجملتها وليست بالألوان منفردة ولا بالخطوط متمايزة تعبر عن فكرة واحدة تتضائل فيها الأجزاء أمام الكل مجتمعا وهذا سر التسمية بالسورة من التسوير بالسور الذي يحمل معنى الشمول والإحاطة الكلية والوحدة دون النظر إلى جزئية الآية إلا بقدر ما تؤدي هذه الآية من معنى يضيف لبنة إلى البناء الكلي للسورة[2].

وهذه الرؤية المتبناة من الباقلاني تظهر بما لا شك فيه مدى اهتمامه بالوحدة العضوية للنص التي بدورها تؤدي إلى الوحدة الفنية، وهذه على ما يبدو رؤية نقدية متقدمة تم التوصل إليها مؤخرا في القرن السابع عشر الميلادي الألماني هربرت الذي يقول ((ان التجربة الجمالية تنحصر في الفهم الكامل لمجموعة من العلاقات ويتبع هذه العلاقات – ضرورة – حكم جمالي فالصوت المنفرد في الموسيقى لا حكم له ولكن مجموعة الأصوات المتجاورة في علاقاتها تستتبع بالذوق حكما عليها بالحسن أو بالقبح وكذلك الأصوات والكلمات المتفرقة لا حكم لها من جمال أو قبح ولكن اجتماعها على نظام خاص في قطعة شاعرية مثلاً لتصور أفكارا خاصة يستتبع حكما جمالياً))[3].

وممن أسس لهذه الرؤى النقدية الشيخ عبد القاهر الجرجاني معتمدا بذلك على مبدأ النظم كأساس للإعجاز، وهو بهذا الصنيع قد شكل مسلكا نقديا بالاشتراك أو

(1) إعجاز القرآن: للباقلاني، ت: محمد صقر، دار المعارف، 1954: ص 12
(2) ينظر: الباقلاني ناقداً أدبياً، أطروحة دكتوراه فاضل محمد عبدالله، كلية الآداب جامعة الإسكندرية، 1985، ص 54
(3) النقد الأدبي الحديث، د. محمد غنيمي هلال: 335

الانضمام إلى ما عرضه الخطابي والباقلاني سابقا فيما يخص وضع أساسيات هذه النظرة العملاقة جاعلا منها خطابا نقديا جديداً إذ ((كان النظم مفهوما نقدياً مهماً عند رجال هذا الاتجاه، بل انه كان حقلاً دلالياً تتمحور من حوله مجموعة من الدوال والمدلولات، انه نظرة جمالية للنص في كليته، فالنص القرآني معجز بكله. ومن هنا كان لابد من البحث عن المشترك بين مكونات النص من داخل النص وليس من خارجه إلا في حدود))[1].

وقد كان الرجل موفقاً في استقراء الآراء التي سبقتهُ إذ حاول قراءتها بتمعن ومن ثم تحديدها وإنضاجها من خلال توصله إلى الربط ما بين النص والنظم ومن إبداعات هذا الرجل النقدية انه قدم للنص المقدس قراءة جمالية غير تلك القراءة التي وقف عليها أسلافه ((بل تجاوزها كثيرا من خلال رؤية شمولية لا تتساءل عن النص القرآني هل هو معجز أو غير معجز، بل تبحث في الكيفية التي جاء بها النص معجزاً))[2].

فقد استطاع ان يتحسس مواطن الجمال في لغة القرآن ومن ثم تكوّن لديه مفهوم النص كقيمة جمالية تحققت في النص القرآني من خلال ترتيب المعاني في النفس مستندا بذلك على معاني النحو الذي يكون عليه ترتيب الألفاظ. فالنظم عنده ليس ترتيب الألفاظ في النطق، وإنما ترتيب المعاني في النفس فهي انعكاس لحالتين منصهرتين يمثلهما اللفظ والمعنى القائم في النفس، يترتب عليه ان يكون المستوى المعنوي التصويري الدلالي هو المستوى المحرك للنظم، وتكون الألفاظ والأفكار فيها انطلاقا من حركة هذا المستوى[3].

ولعل الجرجاني يريد الانطلاق من النظم ليحدد النص، لأن النص عنده مرتبط بمدى تحققه على مستوى النظم المرتبط بطرق الصيغة والتركيب، ((ومن ثم فالنص هو نتاج نظم يتخذه المتكلم ليعبر عن معان يريدها ان تصل إلى المتلقي))[4].

(1) النقد والإعجاز: د. محمد تحريشي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2004، ص 119
(2) المصدر نفسه: 179
(3) ينظر: اللفظ والمعنى بين الايدولوجيا والتأسيس، طارق النعمان: 309، وينظر: التفكير البلاغي في كتب الإعجاز عند المحدثين، أطروحة دكتوراه، قصي نعمه الحصونة، كلية الآداب، جامعة البصرة، 2011 ص 20
(4) ينظر: النقد والإعجاز: 180

يقول الجرجاني ((واعلم ان ليس النظم إلا ان تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل بشيء منها، وذلك انا لا نعلم شيئا يبتغيه الناظم بنظمه غير ان ينظر في وجوه كل باب وفروقه، فينظر في الخبر إلى الوجوه التي تراها في قولك: زيد منطلقٌ وزيد ينطلق وينطلق زيد، ومنطلق زيدٌ، وزيد المنطلق، والمنطلق زيد، وزيد هو المنطلق، وزيد هو منطلق))[1] فهنا يبين ان كل نظم من هذه النظوم له معنى قائم بذاته ليس هو كالمعاني الأخرى مع رؤيتنا له بحالة التشابه الحاصل في هذه التراكيب.

فالجرجاني اعتبر البلاغة جزءا من هذا النظم لذلك عقد فصلا للقول في البلاغة والفصاحة والبيان والبراعة في كتابه دلائل الإعجاز وهو يرى كسابقه الباقلاني من ان الإعجاز متحقق بالنص من خلال نظم الكلام لا بالكلمة المفردة.

لذلك جعل فصلا تحت هذا العنوان (الإعجاز بنظم الكلام لا بالكلمة المفردة) في كتابه سالف الذكر وأعطى المستويات اللغوية وخاصة النحو دورا مهما في الكشف عن جماليات النص لا بل ان النحو عنده هو نظام اللغة بعينه، ويبدو هنا ان هناك مفارقة بين عبد القاهر والأسلوبين المحدثين، ذلك ان كلاً منهم نظر إلى النحو باعتباره عملية أساسية في الرسالة الإبداعية أو الرسالة الإخبارية. لكن الأسلوبية تنظر إلى النحو باعتباره عملية سابقة – وان كانت ضرورية في تركيب الأسلوب – في حين ينظر إليه عبد القاهر باعتباره داخلاً في عملية الصياغة ذاتها، وباعتباره مظهراً فنية المبدع ومقدرته على الإنشاء، وعبد القاهر ينظر إلى النحو بمعناه العام، أي بمعنى العلاقات القائمة بين المعاني، وهي علاقات تثبت في النفس قبل ان تنتقل إلى اللفظ ذاته، بينما تنظر الأسلوبية إلى النحو بمعناه الخاص، أي بمعنى هذه القواعد الصارمة التي تنتظم اللغة وتجعل لها كياناً متميزاً بصفاته وخصائصه[2].

بهذا وبما ورد من تفصيل في كتابيه دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة كان يريد ان يؤسس لخطاب نقدي متميز يدرك حدود النص الجمالية والفنية وبذلك وضع رؤية

(1) دلائل الإعجاز: عبد القاهر الجرجاني، ت: محمد رشيد رضا، دار المعرفة بيروت، 1978، ص 41

(2) ينظر: البلاغة والأسلوبية: د. محمد عبد المطلب. ط1 مكتبة لبنان 1994، ص 43

جديدة ونظرية كبيرة في مجال دراسة النص المقدس نقدياً فتحت الباب على مصراعيه لمن جاء من بعده.

وهذا الزمخشري نراه قد أجهد النفس من اجل الكشف عن الإسرار الخاصة بجمالية النظم القرآني المعجز، إذ انه ((ابتدأ من حيث انتهى السابقون، ولعله رأى السابقين قد أطالوا الكلام في إثبات إعجاز القرآن وبيان وجوه إعجازه وخلص من ذلك إلى انه معجز وان إعجازه في نظمه ووضع نظريته لتكون المقياس الذي تُقاس به بلاغة القرآن الكريم، ولكن أولئك السابقين لم يأتوا من الناحية التطبيقية بما فيه الكفاية فالجاحظ لم يعرض إلا لبعض آي القرآن على وفق النص الذي ورد في كتابه (الحيوان) فرأى الزمخشري بثاقب فكره ان أسرار النظم القرآني والنكت البلاغية التي يشتملها، لا يبرزها إلا علم النظم، وإلا بقيت محتجبة في أكمامها، ومن اجل ذلك ألف كتابه وسماه (الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه لتأويل)) وطبق نظرية الإمام عبد القاهر تطبيقاً عملياً على جميع سور القرآن))[1].

لقد استعان الزمخشري بثقافته الواسعة كمنجد له وكاشف عن غياهب الظلم للوصول إلى أسرار خفايا التنزيل فبحسه الأدبي المرهف والإفادة ممن سبق استطاع ان يقدم قراءة مميزة لنص القرآني تقوم على جمال النظم فهو يرى ان معرفة البلاغة والتمييز بين فنونها أمر ضروري وأكيد لكل مقاربة للنص القرآني مما سهل له الوقوف على كثير من الحقائق الجمالية في النص القرآني.

وقد عده د. شوقي ضيف نسخة ثانية للجرجاني قد أضيف إليها كثير من التميز حيث يقول ((رأينا الزمخشري يطبق في تفسيره آراء عبد القاهر تطبيقاً مستقصياً بديعاً، وقد وصل هذا التطبيق بكثير من آرائه التي تدل على تعمقه وبعد غوره وفطنة في تصوير الدلالة البلاغية وإحاطته بخواص العبارات، بل بأخص الخاص من مفرداتها وتراكيبها وما فيها من محاسن دقاق موثقة))[2].

((وان حسن تمثله لنظرية النظم هو الذي مكن الرجل من ان يضيف إليها شيئاً من ذلك الإجراء المميز على النص القرآني.

(1) قضية الإعجاز القرآني: وأثرها في تدوين البلاغة العربية، عبد العزيز عبد المعطي عرفه، ط1 1985، ص 661 – 662

(2) البلاغة تطور وتأريخ: شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ص 219 – 220

لقد كان الزمخشري قارئاً ممتازاً لما جاء به الجرجاني، استطاع ان يتم الجهود البلاغية ويكملها إلى درجة جعلت البلاغة العربية لا تتجاوز الحد الذي استقرت عليه بعد هذين العالمين الجليلين))[1].

وبهذه اللمحات النقدية نكتفي في إبرازها لضرورة يقتضيها البحث كتمهيد للدخول إلى ميدان الأطروحة وجاءت هذه اللمحات ونقات لبيان الإرهاصات الأولى للتعامل مع النص المقدس نقدياً، دون الدخول بتفاصيل أكثر لان ما كُتب في هذا المجال بلغ الكثرة الكاثرة وان فعلنا ذلك أصبح اجتراراً وتكراراً دون فائدة.

(1) النقد والإعجاز: 197

الفصل الاول

الاتجاه الفني